## المبحث الثاني

# في البلاغة والتكافؤ النحوي
# بـــــين
# العربية والإنجليزية والروسية

## المبحث الثاني

# في البلاغة والتكافؤ النحوي
# بـــــين
# العربية والإنجليزية والروسية

### ٠/ ٠ الفاتحة وأسئلة تنتظر الجواب

الصلة الواشجة بين البلاغة والنحو معقودة منذ عَرفَ العقل الإنساني طريقه إلى تأمل اللغة واستكناه ظاهراتها واستنباط قوانينها. وتتجه هذه الدراسة نحو استكشاف جهة من جهات العلاقة بين العلمين على مستوى يتجاوز حدود لغة واحدة هي العربية، إلى لغتين أخريين هما الإنجليزية والروسية، في محاولة لفحص كوامن الإمكانات في الجهاز القواعدي، ومدى تكافؤ هذه الإمكانات، وقدرتها على توصيل المقاصد البلاغية المرتبطة بالبنية النحوية. من هنا كان رأس الأسئلة التي يبحث لها هذا البحث عن جواب هو: هل ثمة تكافؤ بين أنحاء اللغات الثلاث في قدرتها على استيعاب المقصد البلاغي من التركيب وتحمُّلِه وتوصيله؟ أم أن لبعضها من القدرة على ذلك ما ليس لبعض؟ وإذا كان الجواب في صالح التمايز لا التكافؤ، فكيف تحل اللغات المرجوحة في هذا الباب إشكالها حين تتوارد على ترجمة نص واحد، أو تتغيا نقل فحواه ومقاصده البلاغية من خلال جهاز قواعدي للغة أخرى غير مكافئ لجهاز اللغة المترجم منها؟

ويفضي بنا هذان السؤالان بما لهما من تشعب واتساع إلى مضيق الاختيار، ونعني به اختيار المقولة النحوية التي يمكن أن تتخذ أساسا للفحص؛ فجهات العلائق بين البلاغة والنحو تحكمها ألوان من التقاطع والاعتماد والتداخل، كما يرد عليها السلب والإيجاب والاطراد والتعاكس؛ كل أولئك يقع في حدود اللغة الواحدة، فإذا تجاوزت ذلك الحد إلى غير لغة كان أدعى إلى توقع المزيد من التعقد والتداخل في جهات العلائق حين تقوّم بميزان التكافؤ والتمايز. ولعلّ الدخول إلى سبر هذه العلاقة من مدخل فحص مقولة «**الرتبة**» وتجلياتها في اللغات الثلاث أن يكون أوفق المداخل المتاحة والمنتجة لتحقيق المبتغى، وذلكم هو ما عوّلنا عليه في هذا البحث. وسنبسط فيما يأتي ما رجّح لدينا هذا الاختيار من الأسباب، وما سلكناه إلى فحصها من وسائل، وما حصلته الدراسة من نتائج.

ومرد الأمر في اختيار **الرتبة** word order محدداً لقياس التكافؤ النحوي والبلاغي راجع إلى أنها من أهم المقولات النحوية التي يتحاكم إليها الباحثون في التمييز بين اللغات، وعليها اعتمادهم في اللسانيات التاريخية والتقابلية والمقارنة، وعند فحص **الكليات اللسانية** language universals **والتنميط اللساني** linguistic typology، وهذه مباحث يفضي بعضها إلى بعض، ويخدم بعضها بعضاً[1].

وتتجه هذه الدراسة إلى لغات ثلاث؛ هي العربية والإنجليزية والروسية، لترصد مواقفها من مقولة الرتبة، وما يتصل بتجليات هذه المقولة في الكلام من ظاهرات نحوية وبلاغية وجمالية. ومدار الدراسة هنا على مفهومين محوريين هما:

(١) **الرتبة**: ونعني بها علاقة الترتيب التي تحكم نسق التتابع بين الأبواب النحوية في الجملة؛ أي تتابع المبتدأ فالخبر في الجملة الاسمية، وتتابع الفعل فالفاعل فالمفعول به في الجملة الفعلية. والرتبة بما هي مقولة نحوية ثابتة لا يعرض لها تغيير، ويمكن أن نسميها **«الموقع النحوي»**.

(٢) **نظم الكلام**: ونعني به تتابع الألفاظ في الجملة المنطوقة أو المكتوبة بالفعل. وقد يأتي النظم موافقاً لما تقتضيه الرتبة فيجري على الأصل، وقد يعدل به عن الأصل فيقدم ما الأصل فيه التأخير، أو يؤخر ما الأصل فيه التقديم. ويسمى نظم الكلام أيضاً **«الموضع اللفظي»**[٢].

ولعله من خير الوسائل المنهجية لتحقيق هذه الغاية اعتماد نص واحد تتوارد عليه اللغات الثلاث؛ فيكون أصلاً في إحداها، ومناطاً للاجتهاد في نقله وتوصيله إلى المتلقي في اللغتين الأخريين. حينئذ يكون هذا التوارد سانحة ذات خطر لتعيين مجالات التوافق والتخالف، وتمييز آليات المواجهة التي يحاول بها التراجمة اجتياز العوائق، وحل المعادلة الصعبة بين الإذعان لما تفرضه قواعد اللغة وثقافتها من قيود، والنزوع إلى مغالبة هذه القيود، واستثمار إمكانات الاختيار المتاحة في اللغات الثلاث، بل إلى استثمار هذه القيود أحياناً للخروج من هذه المواجهة الصعبة بنص يتمتع بأمانة النقل وفاعلية التأثير.

وإذا سلمت لنا هذه المقدمة برزت أمامنا معضلة الاختيار الموفق لنص في العربية يكون موضوعاً للفحص. وأوفق النصوص في ذلك نص تواردت عليه

أقلام التراجمة في الإنجليزية والروسية، وقد تجلت فيه مقولة الرتبة بمظاهرها النحوية والبلاغية والجمالية في أتم الصور وأكملها، وتوافرت الدواعي الحافزة لاستفراغ الوسع والطاقة في الإحاطة بدقائق تركيبه، والاجتهاد في نقلها بأقصى ما يطيقه الإمكان. إن يكن ذلكم، فالنص القرآني هو من أَوْلى النصوص بالاختيار لتحقيق الغاية، إن لم يكن أولاها بإطلاق؛ وقد كان.

ومن خلال هذه المواجهة اللسانية والثقافية بين لغات مختلفات في الأصول وفي ظروف الزمان والمكان والتاريخ تنشأ أسئلة ملحة وحائرة تحفز إلى التماس الجواب، وتستمد هذه الأسئلة أهميتها من وثاقة صلتها بقضايا النظرية اللسانية؛ تنميطاً للغات أو استنباطاً للكليات الجامعة بينها، وبما تثيره المباشرة اليومية للنصوص من مشكلات على صعيد النقل والترجمة، وبما يمكن أن تكشف عنه من تباين في الخصائص المائزة بين أنحاء اللغات المختلفة؛ من حيث نصيبها من الطواعية أو التأبّي، ومن الثراء أو الافتقار، ومن القدرة على ابتكار آليات المراوغة والاحتيال لتجاوز ما يصادفها من عقبات.

كان التساؤل الذي صدرنا به هذا البحث عن التكافؤ النحوي بين اللغات في علاقته بالبلاغة: أهو واقع أم وهم؟. غير أن هذا التساؤل هو أصل ينشعب إلى أسئلةٍ فروع لا يمكن تجاوزها، وينبغي وضعها للفحص توصلاً للجواب عن الأسئلة الأصول؛ وها نحن أولاء نوردها فيما يأتي من القول، ليكون منها المنطلق، وإليها المآب:

**(١) ما الخصائص الحاكمة على مقولة الرتبة وعلاقتها بنظم الكلام في نحو العربية؟**

(٢) ما تجليات الرتبة والوظائف المنوطة بها في لغة القرآن؟

(٣) ما مدى فاعلية الرتبة في تشكيل بنية الجملة في الإنجليزية والروسية؟

(٤) ما الكيفيات التي تهدَّى إليها اجتهادُ التراجمة لمغالبة القيود النحوية في لغتي النقل، ولتأمين العبارة عن مقولة الرتبة في العربية وما يرتبط بها - التزاماً بها أو عدولًا عنها - من وظائف نحوية وبلاغية وجمالية؟.

(٥) ما حاصل المقارنة بين اللغات الثلاث في معالجة الرتبة ونظم الكلام؟ وأي اللغتين الناقلتين كانت أقرب إلى الوفاء بالمقاصد البلاغية الناشئة عن مخالفة النظم للرتبة في لغة الأصل؟

وفي محاولة لالتماس جوابات مؤسسة على التحليل التقابلي للنصوص جاءت هذه الدراسة لتنتظم - بعد الفاتحة - مطالب سبعة جرى نَسْقُها على الوجه الآتي:

١/ • مادة الدراسة.

٢/ • الجملة البسيطة في اللغات الثلاث.

٣/ • مقولة الرتبة في اللغات الثلاث.

٤/ • الرتبة في الجملة القرآنية.

٥/ • فحص التراكيب.

٦/ • بلاغة الرتبة من منظور تقابلي.

٧/ • خاتمة واستشراف.

وها نحن أولاء آخذون في معالجة مطالب الدراسة السبعة بفضلِ بيانٍ وتفصيل وفق النسق المتقدم.

## ١/ ٠ مادة الدراسة

مادة هذه الدراسة هي آيات مختارة من القرآن الكريم جرى تتبع الأبدال المقترحة لترجمة معناها في عدد من الترجمات الإنجليزية والروسية. وقد استخدمت في ذلك الترجمات الإنجليزية الآتية (مرتبة بحسب تاريخ النشر):

(1) M. M. Pickthall, **The Meaning of the Glorious Qur'ān,** Dar al-Kitab al-Masri & Dar al-Kitab Allubnani, 1977.

(2) Ahmad Zidan and Dina Zidan. **The Glorious Qur'ān: Text and Translation,** Cairo, Islamic Home, 1979.

(3) A. Yūsuf Ali. **The Holly Qur'an: Text, Translation and Commentary**, Amana Corp., 1983.

(4) 'Izziddin Al-Hayek, **An Approximate Translation of the Meaning of the Honourable Qur'an in the English Language,** Damascus, Dar al-Fikr, 1996.

أما في الروسية فقد اعتمدت ترجمتان هما:

(١) ترجمة غ. س. سابلوكوف وعنوانها العربي «**كلام شريف**». وقد رجعنا إلى الطبعة الثالثة التي نشرت في قازان، مطبعة دومبرا أوسكي، ١٩٠٧.

أما عنوانها بالروسية فهو[٣]:

**Koŕan, Preŕvod c Árabckago Jazyka**

**(القرآن: ترجمة من اللغة العربية)**

(٢) ترجمة ي. يو. كراتشكوفكسي وعنوانها بالروسية:

**Koŕan, Perevod akaďemika,** I. Ju. Kračkovskogo, Mockva, 1990.

وكانت ضوابط اختيار الآيات على ما يأتي:

(١) تمثيل النمطين الأساسيين لبنية الجملة العربية: الاسمي والفعلي بتحققاتهما المختلفة، فيما جاء على الأصل غير معدول به إلى تقديم أو تأخير، وذلك لتعيين أصل الرتبة في نظم الكلام.

(٢) استقصاء ما يعرض للأصل من صور التقديم والتأخير؛ أي مخالفة نسق اللفظ (أو نظم الكلام) لنسق الرتبة.

(٣) صرف عناية مخصوصة إلى الآيات التي كانت موضوعاً للنظر والتحليل في مصنفات النحو والبلاغة وعلوم القرآن، استحضاراً لأنظار القدماء، واستهداءً بها في الكشف عن القيم الوظيفية والبلاغية والجمالية للتراكيب.

## ٢/ ٠ الجملة البسيطة في اللغات الثلاث

موضوع هذه الدراسة الجملة البسيطة. ويستقل هذا المطلب ببيان موجز يعيّن به السمة الغالبة على كل لغة من اللغات الثلاث باعتبار الرتبة؛ لاستظهار مواطن الاتفاق والافتراق بينها من هذه الوجهة. ونبدأ في ذلك بالعربية، ثم نتبعها بالإنجليزية والروسية على التعقيب.

٢/ ١ يجمع النحاة العرب على تصنيف الجملة العربية باعتبار صدرها، ثم إنهم يختلفون فيما وراء ذلك اختلافاً كبيراً في العلاقة بين الجملة والكلام: أهما مترادفان أم غير مترادفين؟ وفي تقدير العامل المتصدر إذا كان محذوفاً، وفي عدة هذه الجمل وأنواعها. بيد أن الإجماع منعقد أيضاً على أن في العربية

نوعين من الجمل البسيطة هما: الجملة الاسمية والجملة الفعلية. يقول ابن هشام:

«فالاسمية التي صدرها اسم، كزيد قائم، وهيهات العقيق، وقائم الزيدان عند من جوزه وهو الأخفش والكوفيون. والفعلية هي التي صدرها فعل، كقام زيد، وضُرِب اللص، وكان زيد قائماً، وظننته قائماً ويقوم زيد وقم»[٤]. ويضيف ابن هشام إلى ذلك تنبيهاً يقول فيه: «إن مرادنا بصدر الجملة المسند أو المسند إليه، فلا عبرة بما تقدم عليهما من الحروف... والمعتبر أيضاً ما هو صدر في الأصل؛ فالجملة من نحو. ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾[٥]، ومن نحو ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[٦]، و﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ﴾[٧] فعلية؛ لأن هذه الأسماء في نية التأخير. وكذا الجملة في نحو... ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا﴾[٨]... لأن صدورها في الأصل أفعال»[٩].

ولسنا هنا في مقام مراجعة كفاءة القسمة وتفصيل ما ضرب لها من الأمثال، وإلا لأوردنا عليها كثيراً من الملاحظ التي لا تدفع إلا بشيء غير قليل من التأويل[١٠]. ولكنا نخلص مما تقدم إلى أن أبسط تحققات الجمل في العربية تأتي على نمطين: اسمي وفعلي. وفيما يلي تمثيل لكل منهما، ولما يندرج تحت كل نمط من صور التحققات المختلفة مصحوبة بأمثلة من الأبدال المقترحة في الترجمات المعتمدة، من غير قصد إلى استقصاء أو مقارنة، فلذلك مكانه من هذه الدراسة (انظر المطلب: ٥):

**النمط الأول**: الجملة الاسمية؛ ويكون الركن الإسنادي الأول فيها اسماً، وتتخذ إحدى الصور الآتية: [قراءة الترجمة باتجاه السهم]

١/ أ - ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ﴾ (الحشر ٥٩/ ٢٢)

مبتدأ (اسم) + خبر (مفرد)

**He is Allah**[١١]

(حرفياً) الله (يكون) هو

(اقرأ من اليسار)

(حاشية مهمة: العلامة [ ˊ ] توضع في الأمثلة الروسية قبل المقطع المنبور مباشرة - والحرف [x] يرمز لصوت احتكاكي من وسط الحنك يشبه إلى حدٍّ ما الخاء العربية في أثره السمعي، ويكون مقابلاً خطياً للهاء العربية)

**- On - Alˊlax**[١٢]

(حرفياً) الله هو

١/ ب - ﴿ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ (آل عمران: ٣/ ١٥٦)

مبتدأ (اسم) + خبر (فعل + «هو»)

جملة فعلية

**- for God gives life and causes death**[١٣]

(حرفياً) الموت يسبب و الحياة يعطي الله (رابط)

**- Alˊlax oziviˊjaet i umeriˊvˊjaet**[١٤]

(حرفياً) يميت و يحيي الله

١/ جـ - ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ ﴾ (الرعد: ١٣/ ٥)

مبتدأ (اسم) + خبر (مبتدأ ثان + خبر)

جملة اسمية

- Such have carcans on their necks[١٥]

(حرفياً) أعناقهم فوق الأغلال (يملكون) أولئك (مثل)

- u nix c'epi na še'jax[١٦]

(حرفياً) الأعناق فوق الأغلال هم عند

١/ د - ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ (إبراهيم: ١٤/ ٥٠)

مبتدأ (اسم + ضمير مضاف) + خبر (. . . شبه جملة «جار ومجرور»)

- Their garments of pitch[١٧]

(حرفياً) قطران من ...لباس هم

- ode'janie ix iz 'smoly[١٨]

(حرفياً) قطران من هم. . ملابس

١/ هـ - ﴿ ... عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ (طه ٢٠/ ٥٢)

مبتدأ (اسم + ضمير مضاف) + خبر (. . . شبه جمل «ظرف + تركيب إضافي»)

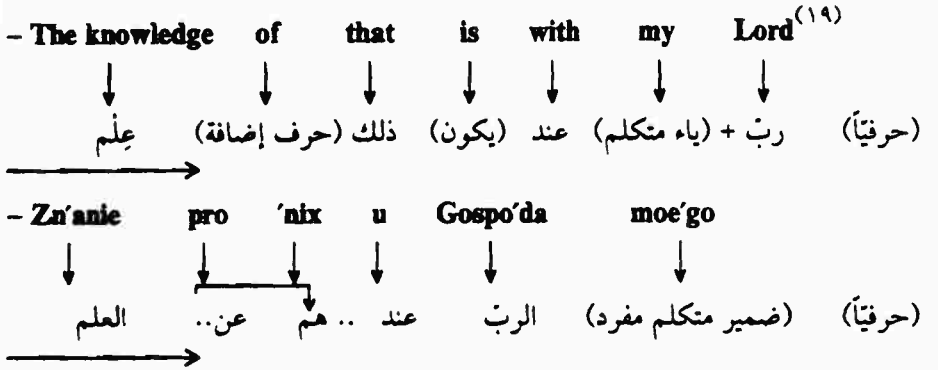


**النمط الثاني: الجملة الفعلية**

ويكون الركن الإسنادي الأول فيها فعلاً. والفعل يكون لازماً ومتعدياً، كما يكون مبنياً للفاعل أو مبنياً للمفعول. غير أن تركيب المبني للمفعول هو على درجة من التعقد والثراء يقتضي أن تستقل ببحثه دراسة قائمة برأسها، كما أن أبنية الجملة مع الفعل اللازم لا تتيح إمكاناً لفحص مقولة الرتبة، وهي المعنية هنا بالنظر. لذلك تتوقف هذه الدراسة بالفحص عند التركيب المؤلف من (فعل متعدٍّ + فاعل + مفعول به). وتخص من الأفعال المتعدية ما كان متعدياً لمفعول واحد، فهذا هو أكثر تراكيب الجملة الفعلية ملاءمة للكشف عن تجليات مقولة الرتبة في اللغات الثلاث. ومثال التركيب المختار هو:

٢/٠ – ﴿ . . . فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ . . . ﴾ (سورة البقرة: ٢/ ٢١٣)

فعل فاعل مفعول به

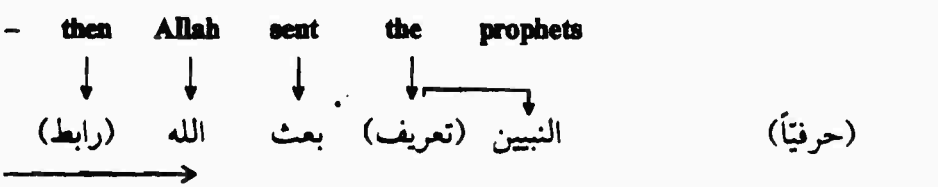

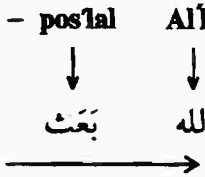


تلكم هي التراكيب الأساسية للجملة البسيطة؛ ممثلاً لها بجمل قرآنية مصحوبة بأمثلة من الأبدال المترجمة لمعانيها من الإنجليزية. وتسمح لنا المقارنة باستنباط النتائج الآتية:

**أولاً: في الجملة الاسمية**

(١) لا خلاف بين اللغات الثلاث فيما يتصل بالتركيب (١/أ) [مبتدأ (اسم) + خبر (مفرد)] من حيث الرتبة الأصلية. وينحصر الخلاف في التزام الإنجليزية بوقوع فعل الكينونة (to be) بين المبتدأ والخبر، على حين يتحقق الإسناد في العربية والروسية مباشرة بلا واسطة، إلا عند إرادة التوكيد، فحينئذ يستخدم في العربية ضمير الفصل (أو ضمير العماد بمصطلح أهل الكوفة)، وتستخدم في الروسية الصيغة est لتتوسط بين مبتدأ وخبر.

(٢) تطابقُ أبنية الرتبة بين اللغات الثلاث في التركيب (١/ب) [مبتدأ (اسم) + خبر (جملة فعلية)].

(٣) ظهر التباين في بنية الرتبة واضحاً لدى المقابلة بين اللغات الثلاث في التركيب (٢/ب) [مبتدأ (اسم) + خبر (جملة اسمية)]. وأمكن في هذا المقام رصد الفروق الآتية:

(أ) في البديل الإنجليزي المقترح جرى ردُّ هذا التركيب (٢/ب) إلى التركيب (١/ب). ونلحظ في غيره من الأبدال المقترحة تعدد

الاجتهاد لنقل المعنى؛ فقد اتخذت الترجمة الحرفية للمثال (٣) في ترجمة زيدان ويوسف عليّ الصورة الآتية:

**« أولئك (يكونون) الذين فوق أعناقهم ستكون الأغلال».**

أما الحايك فقد عدل بالبنية إلى ما ترجمته حرفيّاً:

**«أعناقهم ستكون مقيدة بالأغلال».**

ولعل أقرب الأبدال إلى بنية الرتبة العربية على جهة التقريب هو بديل الخطيب: **"Those on whose necks are fitters"**. أما البديلان الروسيان فقد كانا متماثلين من حيث الرتبة إلى حد كبير، إذ جاء بديل كراتشكوفسكي عند ترجمته حرفيّاً: **«عندهم الأغلال فوق الأعناق»**. وبديل سابلوكوف **«عندهم فوق الأعناق الأغلال»**. وتلحظ أنه آل لدى ترجمة معناه إلى ما يقارب التركيب (١/هـ) [مبتدأ + خبر (ظرف + مضاف إليه)]، مع تغيير (اختياري) طفيف بتقديم أحد المتعلقين وهو «عندهم».

(٤) لم تكشف المقابلة بين التركيبين (١/د) و (١/جـ) [مبتدأ + خبر... (شبه جملة)] عن فروق في الرتبة ذات بال بين اللغات الثلاث.

وخالصة القول في الجملة الاسمية ومقابلاتها أن المقابلات في اللغتين احتفظت جميعها باسمية الجملة وبالرتبة الأصلية في صور التراكيب المختلفة. ويستثنى من ذلك الجملة التي خبرها جملة اسمية؛ إذ يبدو أن هذه التراكيب من موائزِ العربية وخصائصِها، إذا ما قوبلت بالإنجليزية والروسية. غير أن الثبات النسبي للأبدال في الروسية وقربها نسبيّاً من بنية الرتبة في العربية يعززه الجامع بين اللغتين؛ من حيث كونهما من لغات الإعراب. وفيما يلي من هذه الدراسة مزيد من الفحص لهذه الظاهرة.

**ثانياً: في الجملة الفعلية**

رصد الأبدال في الجملة الفعلية يفضي بنا إلى نتيجتين كلتاهما ظاهرة الوضوح نجملهما فيما يأتي:

(١) أن البديل الإنجليزي المقترح - وكذلك سائر الأبدال الأخرى - قد رد الجملة الفعلية في العربية إلى جملة اسمية، أي أن النموذج العربي (فعل + فاعل + مفعول) قد آل في البديل الإنجليزي إلى (فاعل + فعل + مفعول)؛ لذلك يمكن القول إن مجال الاتفاق في الرتبة الأصلية بين اللغتين كبير في الجملة الاسمية، وأنهما متباينتان تماماً بهذا الاعتبار في الجملة الفعلية؛ وبذلك تكون الرتبة في الجملة الفعلية معياراً للتمييز نمطيّاً بين اللغتين. وستزداد هذه الخاصية وضوحاً وتعقداً عند اعتبار النظم المعدول عن الأصل فيما اصطلح على تسميته لدى النحاة والبلاغيين بالتقديم والتأخير.

(٢) أن الرتبة في البديل الروسي جاءت مطابقة تماماً للرتبة في الجملة القرآنية؛ فكلتاهما من النموذج (فعل + فاعل + مفعول). وقد رأينا من قبل ما كان من توافق كبير في رتبة الجملة الاسمية البسيطة بين اللغتين. ويتبين لنا مما تقدم أن الرتبة في الجملة الروسية البسيطة تتمتع بالمرونة والقدرة على الاستجابة للنمطين العربيين الأساسيين: الاسمي والفعلي، على حين يؤول النمطان في الإنجليزية إلى نمط واحد هو الاسمي. وهنا يبرز المشكل البلاغي والجمالي في ترجمة معاني القرآن بروزاً ملحّاً، بل إن المشكل ليزداد اعتياصاً إذا أضفت إلى ذلك ما تتمتع به العربية من إمكانات تتيح لها القدرة على إنتاج

عدد غير قليل من الصور المعدولة عن الرتبة، وقد تجلّىَ ذلك في الجملة القرآنية على أكمل الوجوه بلاغة وتأثيراً.

ويفضي بنا هذا القول الأخير إلى محاولة فحص إمكانات مفارقة اللفظ للرتبة، تلك التي يتيحها الجهاز النحوي في اللغات الثلاث، تمهيداً لفحص مزيد من الشواهد القرآنية، والنظر في الآليات المتباينة التي اصطنعها التراجمة في الإنجليزية والروسية لتوصيل ما أمكنهم توصيله من معاني القرآن وبلاغته إلى القارئين بهما، والكشف عما اعتاق خُطاهم على الطريق من عقبات، وكيف عالجوا عزائم النحو أو استثمروا رُخَصه لتحقيق ما نهضوا له من غاية، وذلكم هو موضوع المباحث الآتية.

## ٣/ ٠ مقولة الرتبة في اللغات الثلاث

اعتمد الباحثون في تعيين الرتبة الأساسية للغة ما basic word order وحدات: الفعل (V)erb والفاعل (S)ubject والمفعول (O)bject بوصفها محددات تتمايز على أساسها أنساق الجمل في اللغات word order parameters، ومن ثم فإن العلاقة التتابعية بين هذه المقولات تقوم أساساً للتصنيف النمطي بينها. وتؤول الاحتمالات المنطقية لهذه العلاقة إلى ستةٍ هي:

SOV، SVO، VSO، OSV، OVS؛ VOS

ويقرر تومليـن Tomlin أن المعطيات الإحصائية الخاصة بدرجة شيوع هذه الأنماط يمكن صياغتها في المعادلة الآتية[٢٠]:

**SOV = SVO > VSO > VOS = OVS > OSV**

ويمكن أن يقال: إن تصنيف اللغات الثلاث بهذا الاعتبار يؤدي إلى نتيجةٍ فحواها أن العربية تنتمي إلى النمط VSO، على حين تنتمي الروسية والإنجليزية إلى النمط SVO.

والذي لا ريب فيه أن المعادلة التي أوردها توملين إنما تعتمد البنية الغالبة على الاستعمال اللغوي، والتي هي مناط التمييز بين لغة ولغة. كما أن التصنيف الذي تقدم في حق اللغات الثلاث هو قائم أيضاً على الأساس نفسه، وإلا فإن اعتبار التفاصيل يفضي إلى تشكيل صورة تزدحم فيها الخطوط وتتقاطع على نحو يعقد ملامحها؛ ففي الإنجليزية يشير كريستال D. Crystal إلى أن النماذج الأخرى مثل: OVS و VSO و OSV وSOV قد وردت في الإنجليزية على ندرة شديدة في نتاج ملتون ووردزورث وبوب، لتؤدي بهذا العدول تأثيراً بلاغيّاً معيناً[٢١]، ويظل مع ذلك النمط SVO هو النمط الأصيل المعبّر عن التوجه الغالب والمائز لنسق الجملة الإنجليزية. أما في العربية والروسية فإن الأمر محوج إلى فضل بيان.

معلوم أن الرتبة النحوية في العربية قد ارتبطت بنهايات إعرابية ملفوظة في أكثر الأحيان وملحوظة في بعضها، وهي ما يمكن أن نطلق عليها «**صرفيمات الإعراب**»، وهذا الملحظ شامل للجملة العربية، فعليةً أو إسمية؛ فالرفع فيها علامة على الفاعلية، والنصب علامة على المفعولية، والجر علامة على الإضافة، وهكذا إلى أن تستوعب الباب كله في مختصرات النحو ومطولاته. ولا معوّل في هذا المقام على قول من ذهب إلى أن ربط علامات الإعراب بأبواب النحو إنما هي من صنع النحاة وسلطانهم القاهر على اللغة، ومن ثم فإن حركات الإعراب على هذا الرأي «**لم تكن تحدد المعاني في أذهان العرب**

القدماء كما يزعم النحاة، بل لا تعدو أن تكون حركات يحتاج إليها في الكثير من الأحيان لوصل الكلمات بعضها ببعض»[٢٢]. أقول: عدْ عن ذا، وانظر إلى ما ورد في القرآن من نماذج فاشية لا يعرف فيها موقع الكلمة في بابها النحوي إلا بعلامة الإعراب. لقد أنتج لنا ذلك شواهد غير قليلة تمثل أنماطاً مختلفة من أنساق الكلام. قارن على سبيل المثال:

(١) ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ (النمل: ٢٧/ ١٦) VSO

(٢) ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ (الحجر: ١٥/ ٦١) VOS

(٣) ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢/ ٨٧) OVS

(٤) ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ (الرعد: ١٣/ ٢٦) SVO

ونحن نعلم أن التركيب في الشاهد الرابع يندرج في التصنيف النحوي العربي تحت الجملة الاسمية، ولكنه بمقتضى نسق التعاقب بين وحداته يصلح من جهة التصنيف النمطي أن يكون قسيماً لثلاثة الشواهد الأُخَر.

ويبدو لنا أن أصولاً أربعة حكمت موقف العربية مادة وتقعيداً من مقولة الرتبة، وهذه هي:

**الأصل الأول: التمسك بالفصل بين نمطي الجملة العربية الأساسيين: الاسمي والفعلي.** ومن ثمّ يمنع نحاة العرب - والبصريون على رأسهم - ما يقول به نحاة الكوفة من جواز تقدم الفاعل على فعله؛ إذ توحِّد مقولة الكوفيين بين تركيبين مختلفين في ظاهر البنية اختلافاً ظاهراً؛ فيَؤُولان بمقتضى قولهم إلى شيء أحد[٢٣].

غير أن الفصل الحاسم بين النمطين يستند أيضاً إلى فارق وظيفي بينهما

يراه جمهرة من العلماء جوهرياً، من حيث إن الجملة الاسمية عندهم أدل على الثبوت والأكادة من الجملة الفعلية[٢٤]؛ ومن ثم فإن الاختيار بينهما، وإن كان حرّاً بميزان الصحة النحوية، هو بميزان البلاغة مشروط. وهذا الإمكان النحوي البلاغي من مواثر العربية وأبين خصائصها.

**الأصل الثاني: أمن اللبس**؛ فالنحاة لا يجيزون أيلولة النموذج VSO إلى VOS إذا انعدمت القرينة الدالة على تمييز الفاعل من المفعول، ولذلك كان قولك: «ضرب موسى عيسى» واقعاً عندهم تحت النموذج VSO لا محالة.

على أن أمن اللبس إذا كان هو غاية النحوي من التقعيد فليس حتماً ولا لازماً أن يكون مراداً لمستعمل اللغة في كل حال؛ إذ قد يطرأ عليه من شؤون الحياة ومضايقها ما يحمله على إرادة التلبيس، بل إن التلبيس يستحيل أداة فاعلة من أدوات التعبير، ووسيلة ذكية من وسائل الفن القولي للتورية والاستخدام والتعريض، وبذلك يصبح تحدي القاعدة النحوية الضامنة لأمن اللبس أبلغ وأولى بالاتباع من الإذعان لسلطانها. غير أن الذي نخرج به من رد هذا التركيب إلى النموذج VSO عند انعدام القرينة هو أن هذا النموذج هو الأصل في اعتبار الرتبة؛ وأن ما سواه معدول به عن الأصل، ويقال نظير ذلك في النمط الاسمي؛ إذ يأتي المبتدأ أولاً في الرتبة ثم يليه الخبر، وما جاء على غير ذلك فهو معدول به عن الأصل.

**الأصل الثالث: عدم جواز الإحالة بالضمير إلى الاسم الظاهر المتأخر لفظاً ورتبة** بحسب الأصل الذي تقدم بيانه. ومقتضى ذلك جواز الإحالة إذا كانت إلى متقدم في اللفظ متأخر في الرتبة، أو إلى متقدم في الرتبة متأخر في اللفظ.

**الأصل الرابع: التزام تصدير ما له الصدارة بذاته كأسماء الشرط وأسماء الاستفهام، وتأخير ما يجب له التأخير بذاته كالاسم المحصور.**

ويفضي بنا اعتبار هذه الأصول الأربعة إلى تصنيف القواعد الحاكمة على الرتبة في العربية إلى:

(١) **قواعد وجوب**؛ أي يجب بمقتضاها ملازمة الملفوظ للرتبة، فيمتنع بذلك تقديم ما الأصل فيه التأخير، أو تأخير ما الأصل فيه التقديم مراعاة لأصل من الأصول الأربعة التي سبق بيانها.

(٢) **قواعد جواز**؛ أي يباح بمقتضاها التقديم والتأخير فيما لا يصادم أصلاً من الأصول السابق ذكرها. والتقديم أو التأخير هنا إنما هو للموضع لا للموقع؛ أي للفظ دون الرتبة.

ولما كانت صرفيمات الإعراب دوالّ للرتبة، وكان اللفظ قابلاً للتقديم أو التأخير بحسب قواعد الجواز - صح أن تكون العربية إلى اللغات ذات النسق الحر في **نظم الكلام** free word order أقرب منها إلى اللغات ذات **النسق الثابت** fixed word order. وعُدَّ ما جاء من ذلك موافقات لقواعد الوجوب أمراً متصلاً بتحري الصواب النحوي، وما كان اختياراً من أبدال تتيحها قواعد الجواز مجالاً للتشكيل الأسلوبي والاستثمار البلاغي. هذا؛ على أننا نتجاوز الصواب إذا أسسنا على ذلك أن المعدول به عن الأصل هو وحده الحقيق بصفة البلاغة، وأن ما جاء على أصله هو خلو من هذا الوصف؛ ولو كان المعدول هو الأبلغ قولاً واحداً لجَرَّده الله في القرآن. وقس على ذلك ما شئت من مثاني البلاغة؛ كالإيجاز والإطناب، والفصل والوصل، والذكر والحذف، وكأنواع التشبيه، وفنون الاستعارة.

إن البلاغة ليس وصفاً مطلقاً يجري إسباغه على التراكيب، بل هو وصف مشروط بأمور لا تتحقق إلا في سياق بعينه ومقام بعينه، وقد يكون التزام الرتبة على أصلها أحياناً هو عين البلاغة. وغاية القول هي أن العدول عن الأصل إنما يستيقظ النظر إلى ما هو مخالف للإلف، وخاذل للتوقع، وحافز إلى التسآل.

ولما كانت لغة القرآن حافلة بما هو معدول به عن أصل رتبته كانت المواجهة اللسانية بين لغته ذات النسق الحر ولغة كالإنجليزية من ذوات النسق الثابت في أمر ترجمة معاني القرآن أمراً حريّاً بالتتبع الراصد الذي يكشف عن آليات المواجهة ويستظهر قوانينها.

نأتي الآن إلى الفحص عن أمر مقولة الرتبة في الروسية؛ لجلاء خصائصها وبيان ما قد يجمعها بالعربية والإنجليزية أو يميزها منهما. وغني عن البيان أن المقام ليس مقام شرح وتفصيل لقواعد الروسية، ولكنه مقام إلماع للجوامع والموائز، ونحسبه كافياً فيما نحن صدده أن نبرز الحقائق الآتية[٢٥]:

(١) في الروسية ست حالات إعرابية هي: **الاسمية** nominative، **والمفعول المباشر** accusative، **والإضافة** genitive، **والمفعول غير المباشر** (وتسمى في أدبيات الاستشراق الروسي **حالة المقصود**) dative، **وحالة الأداة أو الوسيلة** instrumental، **وحالة المجرور** prepositional.

(٢) لكل حالة من الحالات السابقة نهايات إعرابية تميزها. وتختلف هذه النهايات باعتبارات أهمها: **الاسم أو الصفة** [ولا يكون التطابق بينهما إلا في الحالة الاسمية فقط]، **والحي أو غير الحي**، **والمفرد أو الجمع**، **والمذكر أو المؤنث أو المحايد**، **ونوع الصامت أو الحركة التي تنتهي بها الكلمة** (هناك صوامت تسمى لينة أو

محنكة «mjagkie»/ «soft»، وأخرى صلبة أو غير محنكة «hard/ tverdyje»). ويختص كل صنف من هذين بنهايات إعرابية خاصة؛ أي أن النهايات الإعرابية محكومة بشروط الصرف والنحو والأصوات في آن.

(٣) أن الضمائر بأنواعها تخضع في تشكلاتها لحالات الإعراب الست السابق ذكرها، كما تختلف نهاياتها الإعرابية كذلك باختلاف العدد والجنس، ومدى الألفة بين أطراف الكلام.

(٤) أن تصريفات الأفعال في الروسية تشتمل على لواحق تبين عن **الجنس** (المذكر والمؤنث والمحايد)، وعن **العدد** (المفرد والجمع)، وعن **الشخص** (المتكلم والمخاطب والغائب ومدى الألفة بين أطراف الكلام)، بالإضافة إلى وظيفتها الأساسية في بيان **الزمن والجهة**، كما تشتمل الأفعال على صيغ **للمطاوعة** (أو البناء للمفعول)، وصيغ **الإخبار والرجاء والطلب**.

وتوضيحاً لطبيعة النظام النحوي ودور صرفيمات الإعراب في تمييز المعنى النحوي نورد المثال الآتي:

- لاحظ كلمة **posl'annik** «رسول» في التراكيب الآتية: (عن كراتشكوفسكي):

(١) **posla'nnik** (مفرد)

- ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأعراف: ٧/ ٦١).

(حالة الاسمية مع المفرد) Ja 'tol'ka - **pos'lannik**

- ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ (النساء: ٤/ ٤٢).

os'lušalis' **pos'lannika** (حالة المفعولية مع المفرد)

- ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ (التوبة: ٩/ ٩٩).

i mǫ'litvy **pos'lanni ka** (حالة الإضافة مع المفرد)

- ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (آل عمران: ٣/ ١٣٢)

i povi'nujtes' Al'laxu i **pos'lanniku** (المقصود) حالة المفعول غير المباشر

- ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (النور: ٢٤/ ٥٤)

na **pos'lannike** - Tol'ko 'jasnaja pered'ača (حالة الجر مع المفرد)

- ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ (سورة البقرة: ٢/ ١٤٣).

Kto s'leduet za **pos'lannikom** (حالة الوسيلة مع المفرد)

(٢) **posla'nniki** «رُسُـل»

- ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ..﴾ (سورة البقرة: ٢/ ٢٥٣)

Vot - **pos'lanni ki** (حالة الاسمية مع الجمع)

- ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ (سورة البقرة: ٢/ ٨٧)

otp'ravili **pas'lannikov** (حالة المفعول المباشر مع الجمع الحي)

- ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ (سورة فصلت: ٤١/ ٤٣)

čto govo'rilos' **pas'lannikam** (حالة المفعول غير المباشر مع الجمع)

- ﴿عَنَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ (الطلاق: ٦٥/٨)

(حالة الإضافة مع الجمع)

**vozgov'dilos' nad pri'kazom ix Gospo'da u Evo pos'lannikov**

- ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (النحل ١٦/ ٣٥)

- (حالة الجر مع الجمع)

a'razve **na pos'lannikax** (le' žit) čto-ni'bud', 'krome 'jasnoj pere'dači?

- ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ (المائدة ٥/ ١٩)

vo 'vre'mja pre'r'yva 'meždu **pos'lannikami** (حالة الوسيلة مع الجمع)

وهكذا يتبين لنا تمايز حالات إعراب الاسم إفراداً وجمعاً، وقس على ذلك جميع ما ذكرنا من صفات وضمائر وأفعال باعتبار العدد والشخص والجنس والحي وغير الحي على التفصيل الذي سبق بيانه.

وإذن؛ فجهاز النحو والصرف في اللغة الروسية على درجة كبيرة من الثراء تكفل لنظم الكلام فيها قدراً صالحاً من المرونة، أو هو بعبارة أخرى يجعل منه نظاماً قريب الشبه بنظام العربية ذي النسق الحرّ. ومع أنه في نظم الجملة الروسية كما يقول كومري **«تُنتجُ أيُّ صيغة للتبادل بين الفاعل والفعل والمفعول به جملةً صحيحةً بميزان النحو فإن النسق SVO (وهو ما يقابل التركيب العربي ١/ ب) هو الأكثر شيوعاً من جميع الأنساق الأخرى»**[٢٦]، وهذا يعني أن في الإمكان أن نفترض نسقاً أصليّاً أو محايداً أو غير ذي ميزة unmarked، وتكون الأنساق الأخرى في حكم المعدول بها عن أصل، ويفسح هذا

الافتراض المجال للقول بعزو قيم بلاغية معينة لهذه الأنساق؛ حيث تكون المفارقة بين الموضع والموقع، أو - بعبارة أخرى - بين اللفظ والرتبة مؤشراً يستيقظ الأنظار لحصول العدول، ويحفز المتلقي لاستكناه الحكمة والربط بين العلة والمعلول.

ونحن نتوقع لذلك أن تكون استجابة النظام النحوي في الروسية لمقتضيات التقديم والتأخير في الجملة العربية عامة والجملة القرآنية خاصة أوفر حظّاً من حيث المرونة والقُدرة على تحمل المغزى، ونقل التأثير البلاغي لمقولة الرتبة العربية، إذا ما قيس إلى ما يتيحه نظم الكلام في الإنجليزية من إمكان. وفي المطلب الخامس من هذا البحث اختبار لهذه المقولة بدراسة ما جعلناه موضعاً للفحص من التراكيب المختارة.

## ٤/ ٠ الرتبة في الجملة القرآنية

استيقظت مقولة الرتبة ونظم الكلام (أو مبحث التقديم والتأخير) في القرآن أنظار علماء النحو والبلاغة، وشغلت حيزاً ظاهراً من مبحث الإعجاز. بيد أن معالجة البلاغيين لمبحث التقديم والتأخير لم تتوقف عند حدود المشكل اللغوي، بل تجاوزته إلى مسائل أخرى منقطعة الصلة بالرتبة بما هي مقولة من مقولات التحليل اللغوي للنص.

ومقامنا هذا مقام إلماح إلى المتوسّع فيه: وهو التقديم والتأخير باعتبار المعاني، ومقام توقفٍ بفضل بيان عند المقصود بالأصالة؛ وهو التقديم والتأخير في الملفوظ. وحسبنا فيما يتصل بالأول أن نعرض لعلل التقديم

والتأخير كما لخصها **يحيى بن حمزة العلوي** صاحب **«الطراز»** (٦٩٩ - ٧٤٥هـ)؛ ففيها غناء عن تتبع الأمر في مصنفات البلاغيين على جهة الاستقصاء.

يحصر العلوي علل التقديم باعتبار المعاني في خمس: تقدم العلة على المعلول، والتقدم بالذات كتقدم الواحد على الاثنين، والتقدم بالشرف كالعلماء على الجهال، والتقدم بالمكان كالإمام على المأموم، والتقدم بالزمان كتقدم الشيخ على الشاب. ثم إن العلوي ينطلق يلتمس شواهد من القرآن يضربها مثلًا على ما ساق من علل[٢٧]، وقد صنع صنيعه الزركشي في **«البرهان»** (٧٤٥ - ٧٩٤هـ)، وزاد عليه حتى بلغ بها خمساً وعشرين علة[٢٨]. وجميعها ليس هو المقصود بالنظر في هذه الدراسة إذا استثنينا آخر اثنتين منها؛ وهما التقديم لخفة اللفظ ولرعاية الفواصل، ولنا إليهما عودة في قابل.

نأتي الآن إلى التقديم والتأخير باعتبار الرتبة؛ أي تقديم ما هو في نية التأخير. وحاصل أقوالهم في التعليل لذلك هي:

(١) أنه يكون للاختصاص. وقد عُرِف به الزمخشري (٤٦٧ - ٥٣٨هـ)، وعليه كثير من أئمة البيان كأبي يعقوب السكاكي صاحب المفتاح[٢٩] (٦٢٧هـ)، وشراح **المفتاح** وملخصيه، وخالف عنه **أبو حيان** (٧٤٥هـ) في **«البحر المحيط»** وتلميذه **السمين الحلبي** (ت ٧٥٦هـ) في **«الدر المصون»** على ما سيأتي بيانه بعد. وذكر الإمام الزركشي في البرهان[٣٠] أن **«الذي عليه محققو البيانيين أن ذلك غالب لا لازم»**.

وللاختصاص عند بعض أئمة البيان وجه يتجاوز تحقيق الغرض البياني إلى صحة المعنى. ودليل ذلك عند الإمام السكاكي أن أهل العلم يفرعون على التقديم ما يفرعون على نفس التخصيص. وعليه عدّ من الإحالة في المعنى عند **السكاكي** ومن قبله **عبدالقاهر** أن يقال: «**ما زيداً ضربت ولا أحداً من الناس**»؛ إذ إن نفي اختصاص زيد بالضرب يفهم منه وقوع الضرب على سواه، فيكون بذلك نفي وقوعه على أي أحد من فساد المعنى[٣١].

(٢) أن التقديم يكون للعناية بالمقدم. وأولوية هذا القول في «**الكتاب**». ولم يرتض الإمام عبدالقاهر (ت ٤٧١ أو ٤٧٣هـ) الوقوف بالتعليل عند القول بالعناية، بل أوجب الخروج من ذلك إلى وجوب بيان العلة فيها؛ «**من أين كانت العناية؟ وبم كان أهم؟**»، وضرب لذلك غير مثل، مبيناً في كلام شديد التحصيل والتفصيل ما يكون للتقديم من المزية إذا صادف موضعه وأصاب موقعه[٣٢].

ولقد أخذ بهذا المذهب أبو حيان الأندلسي وتبعه تلميذه السمين الحلبي كما ذكرنا. ونقض به قول الزمخشري؛ قال: «**والتقديم على العامل عنده** - يعني الزمخشري - **يوجب الاختصاص، وليس كما زعم**»[٣٣] وارتضى أن يكون التقديم للاهتمام، و«**الاهتمام والعناية في التقديم والتأخير سواء**».

(٣) أن التقديم يكون للاختصاص كما يكون مراعاة لنظم الكلام ومشاكلة رؤوس الآي. وإلى ذلك ذهب **ضياء الدين ابن الأثير** (٦٣٧هـ) في

«**المثل السائر**»، وخرَّج عليه كثيراً من الآيات التي حمل التقديم فيها على الاختصاص عند غيره[٣٤].

على أن ثلاثة المقاصد المتقدمة ليس بينها - فيما نرى - تدافع أو تعاند، ذلك أن الاختصاص تفريع على العناية والاهتمام، كما أن القول بتضافر علتي الاختصاص والتشاكل في تقديم المفعول وارد. وإليه ذهب العلوي في «الطراز»؛ قال: «**والمختار عندنا أنه لا منافاة بين الأمرين؛ فيجوز أن يكون التقديم من أجل الاختصاص والتشاكل؛ فيكون في التقديم مراعاة لجانب اللفظ والمعنى جميعاً؛ فالاختصاص أمر معنوي، والتشاكل أمر لفظي.... فبالتقديم تحصل ملاحظة الأمرين جميعاً**»[٣٥].

ومناط السؤال هنا هو: ما القيود التي وضعتها مقولة الرتبة ومراعاة مقاصد البلاغة في التقديم والتأخير على حرية المترجم حين يعرض لنقل معاني الجملة القرآنية؛ وما مظاهر الإذعان أو التفلت التي يحاول بها التوفيق بين قيود اللغة المنقول منها واللغة المنقول بها؟ وهل القيود سواء عند من يصطنع الإنجليزية ومن يصطنع الروسية لغة للترجمة؟

تلكم الأسئلة هي موضوع الفحص في المطلب الآتي من هذا البحث.

## ٥/ ٠ الفحص عن التراكيب

موضوع هذا المطلب هو فحص متلبث لعدد من نماذج الجملة العربية في نمطيها الاسمي والفعلي يتجلى فيها عمل الرتبة وحمولتها البلاغية؛ لنرى ما آلت إليه على يد التراجمة حين حاولوا نقل معناها إلى غير العربية:

**وثمة ملحظان مهمان ينبغي التنبيه إليهما:**

الأول: أن الاختيار المعجمي لم يكن في هذا المبحث أو في غيره من بين غايات هذه الدراسة؛ فهو حقيق أن يكون موضوعاً لدراسات قائمة برأسها؛ ومن ثم كان حديثنا مقصوراً على موضوع نظم الكلام لا يتعداه إلى غيره، ملتفتين إلى حين عن غير ذلك من الجهات التي يمكن أن تكون موضوعاً للمقارنة.

الثاني: أن حفايتنا بالرتبة يُخْرِج من مبحث التقديم عندنا ما كان على غير نية التأخير مما أشار إليه **الإمام عبدالقاهر** بقوله: «**وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ ويكون الآخر خبراً له، فتقدم تارة هذا على ذاك، وأخرى ذاك على هذا**»[٣٦]. فجميع ما يعالجه البحث من تراكيب إنما يقع تحت ما هو ثابت في الرتبة ومعدول به عن جهته في اللفظ. وإذ استبان ذلك نأخذ الآن في الفحص عن أمر ما لدينا من الشواهد.

## ٥/١ - تقديم الخبر جوازاً في الجملة الاسمية

تقرر القاعدة النحوية أنه إذا وقع الإخبار بالظرف أو بحرف الجر وكان المبتدأ معرفة أو كان نكرة يسوغ الابتداء بها، جاز تقديم الخبر. والأكثرون على أن التقديم إن كان في الإثبات دَلّ على الاختصاص، وإن كان في النفي فإن تقديمه يفيد تفضيل المنفي عنه[٣٧]. والسُّؤال هو: ما حظ اللغتين الناقلتين من الحفاظ على معنى الاختصاص؟ وما وسائلها إلى ذلك فيما حاولت؟. لننظر في المثال الآتي:

- ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ (آل عمران: ٣/ ٥٥)

لدى ترجمة معنى هذا القول الكريم ذهبت جميع الأبدال الإنجليزية إلى تقديم الجار والمجرور للعبارة عن معنى الاختصاص. ويبدو أن أكثرها لم تجد في هذا التقديم مَقْنعاً - فعمد «بكثال» «وزيدان» «وعلي» إلى زيادة كلمة **all** ليعضدوا بها إرادة الاختصاص، ومثاله بديل «بكثال»:

**- Then Unto Me Ye will (all) return**

هذا، مع أن هذه الزيادة تفيد استغراق المخاطبين ولا نصّ فيها على الاختصاص. أما البديل الروسي عند سابلوكوف وكراتشكوفسكي فيبدو أقرب إلى روح التركيب العربي. تأمل (كراتشكوفسكي):

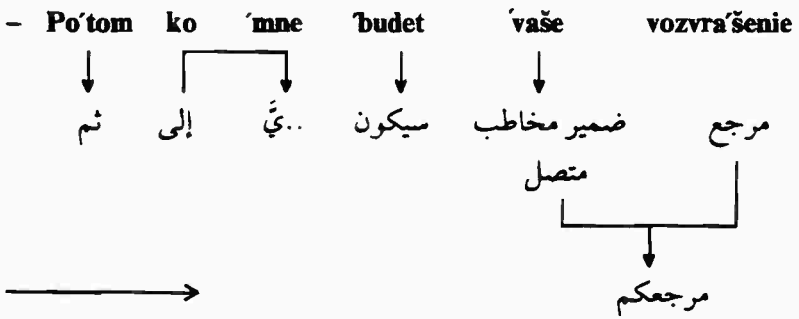


وإذا كانت (all) لم تفضّ الإشكال في المثال السابق فإن غيرها من الأبدال المعجمية (وليست النحوية) تبدو هي الملجأ في كثير من الأحيان. تأمل المثالين الآتيين:

- ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ (الرعد: ١٣/ ١٤).

- ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ (غافر: ٤٠/ ٥٢)

حيث إفادة الاختصاص عند «يوسف علي» منوطة بزيادة **«only», «alone»**

على التعقيب:

– For Him **(alone)** is prayer in truth.

– But they will **(only)** have the curse.

ويبدو أن الحساسية النحوية – إن صح التعبير – لنقل إرادة الاختصاص في الأبدال المقترحة من الروسية هي أعلى من نظائرها في الإنجليزية. قارن ما اقترح لترجمة معنى المثالين الآتيين:

– ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الفاتحة: ١/ ٢).

– ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الجاثية: ٤٥/ ٣٦).

وقد جاءت على الوجه الآتي:

| فللهِ الحمدُ | الحمدُ لله | |
|---|---|---|
| Then Praise be to Allah | Prais be to Allah | بكثال |
| So, all Praise be to God | all Praise be to God | زيدان |
| Then Praise be to God | Praise be to God | علي |
| Praise be to God | Praise be to God | الخطيب |
| Then Praise be to Allah | Praise be to Allah | الحايك |

والمقابلة بين هذه الأبدال المقترحة لترجمة معنى الآيتين تفضي إلى القول بأن التقديم لإفادة الاختصاص في آية **الجاثية** لم يحظ فيها بما يميزه من التركيب الذي جاء على الأصل في آية **الفاتحة**. أما المترجمان الروسيان فقد اقترحا بديلين مختلفين لكل منهما على الوجه الآتي:

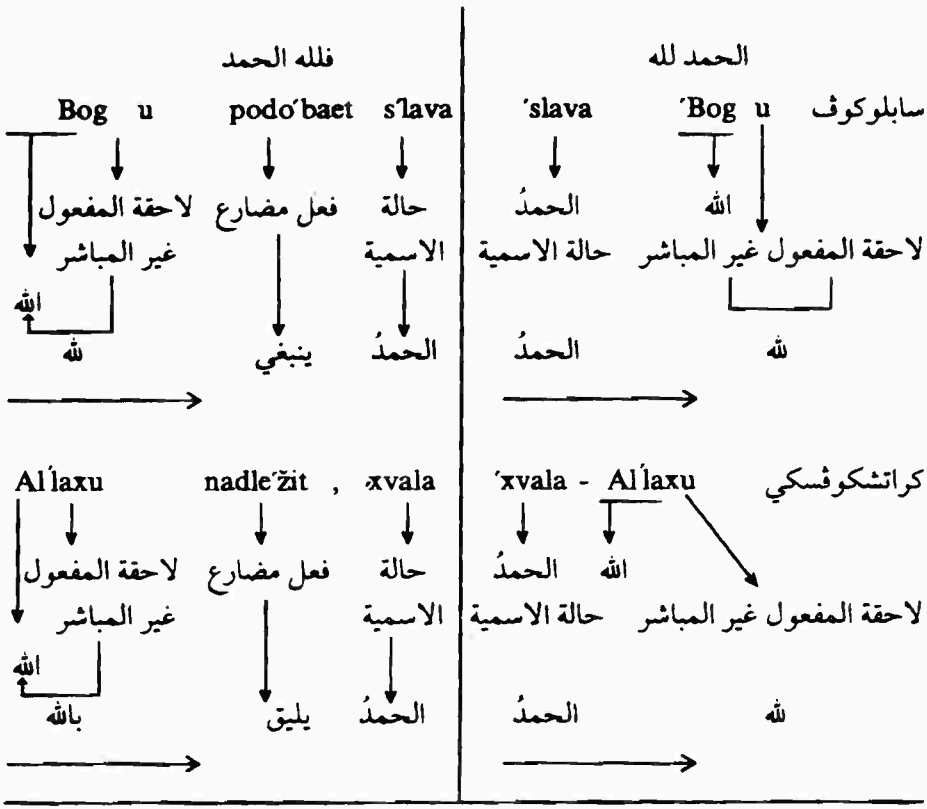


إذا تجاوزنا تنوع الخيار المعجمي بين البديلين في [Allax/Bog] و [´slava / ´xvala] و [nodo´baet / nadle´žit] خَلُصنا إلى أن المقابلين الروسيين في **«الحمد لله»** يتواءمان مع بنية التركيب العربي؛ فكل منهما جملة اسمية تحقق الإسناد بين ركنيها من غير واسطة، ودلت لاحقة الإعراب في الركن الثاني على ما تدل عليه بنية شبه الجملة في العربية. فإذا جئنا إلى ما اقترحه المترجمان لنقل معنى الاختصاص في التركيب المعدول؛ **«فلله الحمد»** وجدنا تقديماً للمفعول غير المباشر على الفعل وفاعله في ترتيب يمكن أن يَؤُول نحوياً إلى أحد النماذج الآتية (مثال سابلوكوف):

– ´Bogu podo´baet ´slava (OVS) –

– ´Slava podo´baet ´Bogu (SVO) –

– Podo´baet ´slava ´Bogu (VSO) –

– ´Slava ´Bogu podo´baet (SOV) –

والجمل الأربعة صحيحة نحوياً على تفاوت بينها في الشيوع وفي مواءمة السياق والمقام، وهذه الحرية في نظم الكلام مردها إلى تمايز الاسمين من جهة الإعراب؛ فأحدهما في حالة الاسمية nominative، والآخر في حالة المفعولية غير المباشرة dative.

## ٥/ ٢٠ امتناع تقديم الخبر

تلخص مصنفات النحو المواضع التي يمتنع فيها تقديم الخبر (أي التي ينبغي أن يتحد فيها المؤَضع بالموقع) في حالات خمس هي:

**(١) تساوي المبتدأ والخبر في التعريف والتنكير (إلا لقرينة دالة).**
**(٢) أن يكون الخبر جملة فعلية فاعلها ضمير مستتر يعود على المبتدأ.**
**(٣) أن تتصل بالمبتدأ لام الابتداء.**
**(٤) أن يكون المبتدأ مما له صدارة الكلام.**
**(٥) أن يؤتى بالخبر محصوراً.**

وقد نبهت فيما سلف إلى أن هذه الدراسة ستلتفت عن التراكيب المنضوية تحت الحالة (١)، كما أن الحالة (٢) قد تقدم فيها علاجٌ مفصَّل بسبب ما يرتبط بها من أيلولة الجملة الاسمية إلى الفعلية في حال التقديم. أما الحالتان (٣) و(٤) فهما من موائز العربية التي لا ينفسح لها مكان ظاهر في هذا المبحث التقابلي. وتبقى لنا الحالة الخامسة، ونحاول من خلال تأملها

فحص الكيفيات التي عبرت بها اللغتان عن مقولة الحصر المرتبطة بثبات الخبر لفظاً ورتبة في العربية. وشواهد الحصر منبثة في القرآن وتكون بالاستثناء المفرغ أو بإنما.

ونسوق هنا مثالاً واحداً ولكنه دالٌ على سائر ما يقع تحت هذا الباب من أمثلة، وهو الأبدال المقترحة لترجمة معنى قوله تعالى:

- ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ (آل عمران: ٣/ ٢٠).

وقد جاءت الأبدال الإنجليزية على الوجه الآتي:

**بكشال:**

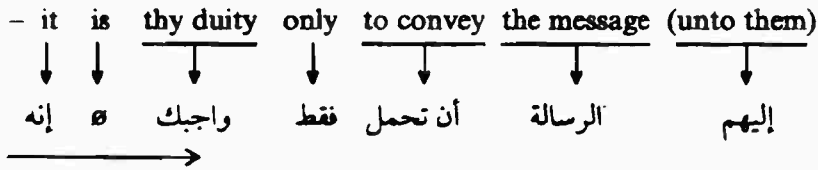


**الخطيب:**

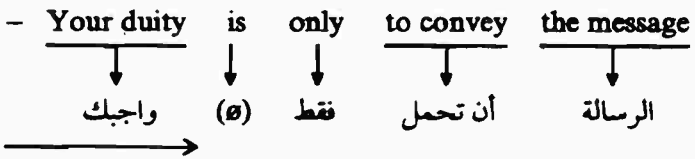


**الحايك:**

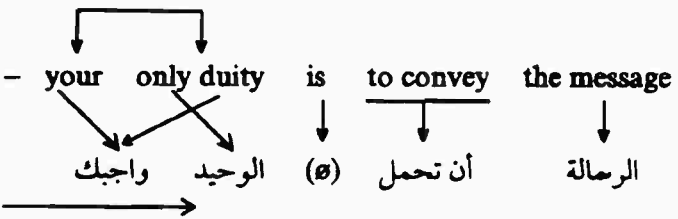

زيدان:

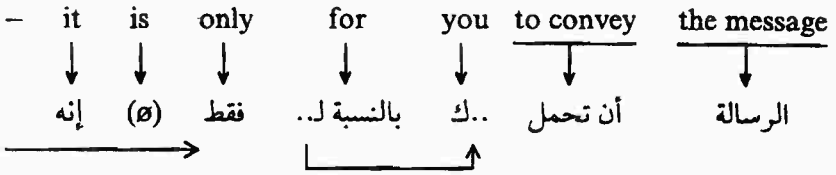


كراتشكوفسكي:

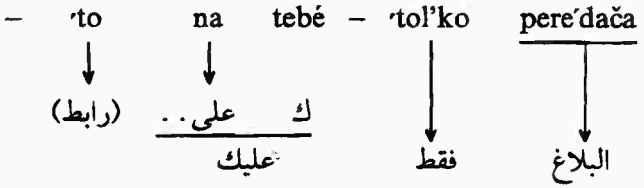


فإذا فعلنا وجدنا بأيسر النظر أن كلمة واحدة هي pere'dača قامت بكفاءة مقام to convey the Message، وأن البنية في البديل الروسي موازية تماماً لبنية التركيب العربي. هذا؛ وإن كانت جميع الأبدال الإنجليزية والروسية لم تتخل عن استمداد العون من المعجم باعتمادها على «only» و «tol'ko» لإفادة الحصر، فنهض المعجم بما قعد عنه التركيب.

### ٠٣/٥ تقديم المفعول به

ما بنا هنا تفصيل القول في القواعد الحاكمة على الجملة الفعلية العربية من حيث علاقة الموضع بالموقع في مكوناتها الثلاثة: الفعل والفاعل والمفعول. ولكنا نتوقف عند معالم ورسوم فيما نحن بسبيله وهي:

(١) أن الأصل في الرتبة هو تتابع الفعل ثم الفاعل ثم المفعول به VSO. وهي الرتبة الملتزمة عند انعدام القرينة الدالة.

(٢) أن المفعول به يجوز تقديمه على الفاعل (VSO ⟵ VOS) كما يجوز تقديمه على الفعل (VSO ⟵ OVS) عند وجود القرينة.

(٣) يكون تقديمه على الفاعل وجوبياً إذا اتصل بالفاعل ضمير يعود على المفعول به. ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ...﴾[٣٨] (سورة البقرة: ٢/ ١٢٤)، وقوله تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ (الأنعام: ٦/ ١٥٨).

(٤) الغالب في تقديم المفعول به على الفعل أن يكون مراداً به الاختصاص، وليس ذلك لازماً عند فريق من البيانيين، وقد أسلفنا الإشارة إلى ذلك في مطلب سابق من مطالب هذه الدراسة. أما تقديمه على الفاعل جوازاً فليس فيه بيان ينتظم شواهده. ومثل هذا التقديم كثير في القرآن، وله من حسن الوقع على من له ذائقة حسنة في الكلام ما ليس لمجيء الكلام على الأصل في الترتيب، وأحسبه من موائز التركيب في الجملة القرآنية على خفاء في المقصد البلاغي، تحفز إلى التماس السر وطلب العلة، ولا أحسب أن دراسة كدراستنا هذه تطيق الاستقلال بهذه المهمة. غير أننا سنصرف اهتمامنا إلى تأمل الصبغ الجمالي المميز لهذا العدول، غير غافلين عن وجه آخر للمسألة لا ينفك عن الأول؛ فقد لا يكون تقديم المفعول على فاعله هو المقصود بل يكون المقصود هو تأخير الفاعل عن المفعول، ولكل حادث من هذين حديث.

### ٥/ ٣/ ١ جماليات الرتبة في الجملة الفعلية

قدمنا الحديث عن مذهب في شأن التقديم والتأخير يعتد بالتناسب وتشاكل رؤوس الآي سبباً، ويجعل منه قسيماً للاختصاص. وأكثر علماء البيان حماسةً لهذا المذهب ابن الأثير، وبه ردّ قول الزمخشري بأن التقديم في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ١/ ٥) إنما هو

للاختصاص، بل جعله «المراعاة حسن النظم السجعي»[٣٩]. وعلّق ابن الأثير على هذا وأمثلة أخرى من جنسه بقوله: «فبطل إذاً ما ذهب إليه الزمخشري وغيره» (٣٧/٢٣٨)[٤٠]. غير أن العلوي وغيره لا يرون - كما قدمنا أيضاً - تدافعاً بين المذهبين، وحقٌّ ما ذهب إليه. فإذا كانت إرادة الاختصاص مستعلنة في أكثر الشواهد فإن الصبغ الجمالي يبدو مستعلناً أيضاً في بعضها على نحو يصعب الالتفات عنه.

وإذا كان القول بالاختصاص أو الاهتمام غالباً في تقديم المفعول على فعله فإن تقديم المفعول على الفاعل ليس لدينا في التعليل له إلا إشارات قليلة تلحقه بإرادة الاهتمام. ومن هذا القبيل تعليق للسمين الحلبي على قوله تعالى: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ (سورة البقرة: ٢/ ١٣٣)، يقول: «قدم المفعول اهتماماً»[٤١]. ولا أرى ذلك؛ إذ لا معنى للاهتمام هنا. ويشهد لذلك أن للآية نظيراً هو قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ (سورة البقرة: ٢/ ١٨٠)، والقول بأن التقديم فيها للاهتمام غير وارد قطعاً. أيكون لمثل هذا علاقة بما سماه الزركشي «خفة الألفاظ» وجَعْلِه إياه مع رعاية الفواصل من بين مقاصد التقديم والتأخير، وإن كان تَرَك التمثيل له من القرآن[٤٢]. قد يكون، والأمر مستأهل للجد في التنقيب عن حقيقته، أما التقديم أو التأخير الذي يمت إلى رعاية الفواصل وتشاكل رؤوس الآي بسبب فهو واضح مستعلن[٤٣]. قارن:

- ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ (الأعراف ٧/ ١٢١ - ١٢٢).
- ﴿. . . وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ * فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ (طه: ٢٠/ ٦٩ - ٧٠).

قال السكاكي: «**للمحافظة على الفاصلة**»[٤٤]، هذا مع أن موسى هو الأَوْلى بالتقديم.

ومما قصد به تأخير الفاعل لا تقديم المفعول؛ رعاية للفاصلة قوله تعالى:

- ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ (طه: ٢٠/ ٦٧).

وقد اقترحت لترجمة معناه:

**(كراتشكوفسكي):**

a) – I po'čuvstvoval Mūsā v dūše strax

(حرفيّاً) و أحسّ موسى في النفس خيفة

**(الخطيب)**

b) – Then Moses felt fear within himself

(حرفياً) (رابط) موسى أحسّ الخوف في نفسه

**(زيدان)**

c) So Moses concieved in his mind a (sort) of fear

(حرفياً) (رابط) موسى أحسّ في نفس (هو) نوعاً من الخوف

وأيسر نظرة إلى الأبدال السابقة في ترجمة معنى الآية تهدي إلى أن أيّاً منها لم يوفق في نقل جمالية تأخير الفاعل عن متعلقه، وذلك أن مراعاة تشاكل رؤوس الآي مستثناة من الترجمات بالكلية. بيد أن ملمحاً واحداً يقرب

الوشيجة بين التركيب الروسي والتركيب العربي؛ إذ إن كليهما من النموذج VSO على حين تنتمي الأبدال الإنجليزية إلى النموذج SVO، وتبقى بعد ذلك حرية نَسْقِ المكونات ظاهرة. ونجد نظير ذلك في ترجمة معنى قوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ (إبراهيم: ١٤/ ٥٠)، وقوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ (المؤمنون: ٢٣/ ١٠٤)، إذ جاء التقديم في الآية الأولى على جهة رعاية الفاصلة[٤٥]، على حين وقع في الآية الثانية في درج الكلام، فلم تختلف ترجمة المعنى لا في الروسية ولا في الإنجليزية بهذا الاعتبار، بل كان هَمُّ التراجمة الظاهر توصيل المعنى على النحو الذي يرتاح إليه كلٌّ منهم؛ فقام جميعهم في آية «المؤمنون» بترجمته إلى النموذج SVO، على حين عمد أكثرهم في آية «إبراهيم» إلى ترجيح المبنيِّ لما لم يُسمَّ فاعله: نحو:

**- Their faces enveloped (covered) by the Fire**

وهو تركيب يجافي بذكره الفاعل في المعنى (مسبوقاً بـ «by») منطق العربية في البناء للمفعول، حيث يُحذف الفاعل في العربية مبنى ومعنى لتحقيق مقصود التركيب العربي من إخفاء الفاعل، (كأن يكون الإخفاء لعموم العلم به أو للجهل به أو لتعظيمه أو لتحقيره أو للإيهام إلى غير ذلك من المقاصد).

والشواهد على تقديم المفعول على الفاعل فاشية في القرآن، وقد صرح أهل العلم بحمل أكثرها على رعاية الفاصلة، ونذكر منها:

- ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ (الحجر: ١٥/ ٦١).

- ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ (القمر: ٥٤/ ٤١).

- ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢/ ٨٧)[٤٦].

- ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ (المائدة: ٥/ ٧٠).

- ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ (الأحزاب: ٣٣/ ٢٦).

على أن تراجمة معاني القرآن إلى الإنجليزية والروسية سلكوا صدد هذه الظاهرة مسالك شتى، فاحتفظ بعضهم بالترتيب على ما وردت به في الجملة القرآنية، وانطلق بعضهم إلى اعتبار المعنى ورسوم اللغة الناقلة ومواضعاتها. وهم على الحالين لم ينظروا إلى جمالية الترتيب في العربية على نحو ما بيناه. ذلكم هو ما تهدي إليه أيسر مراجعة لاجتهاداتهم في نقل معاني ما سبق من آيات، وما هو منها بسبيل.

وحاصل القول: إن المقصد الجمالي من التقديم والتأخير في العربية ظاهر في كثير من الشواهد القرآنية، وهو مظهر من مظاهر الإعجاز اللغوي فيها، ولكن قيود اللغات الناقلة تفرض هيمنتها على المترجم فتجعل هذا المظهر البلاغي خارج متناوله وقدرته على التوصيل.

### ٥/ ٣/ ٢ التقديم للاختصاص أو للعناية

مدار الربط بين تقديم ما حقه التأخير وإفادة الاختصاص أو العناية هو إبراز المكون اللغوي الذي يراد لفت النظر إليه بمخالفة المتوقع في شأن وروده في سلسلة الكلام. ذلكم - تمثيلاً - هو ما نلحظه في قوله تعالى:

- ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ١/ ٥).

وفيه عدول من ضمير المفعول المتصل بالفعل إلى ضمير المفعول المنفصل وإفراده سابقاً للفعل. ولما كان النظام النحوي في العربية يتيح هذا الإمكان في يسر، وكان معنى الاختصاص أو العناية ظاهراً في آية الفاتحة، بل إنه هو مدار القصد - لم يكن بُدّ من تنوع اجتهادات التراجمة لإبرازه باستثمار الإمكانات المتاحة في الإنجليزية والروسية. وكان ذلك نهزة سانحة للنظر. فلننظر فيما بين أيدينا من أبدال إنجليزية:

**بكثال:**

- Thee **(alone)** we worship, we ask for help

**عليّ:**

- Thee do we worship, and thine aid we seek.

**زيدان:**

- You **alone do** we worship, and you **alone do** we turn to for help.

**الخطيب:**

- You **do** we worship, and to you **do** we pray for help.

**الحايك:**

- You **alone** we **do** worship and your help **we do** ask.

حاصل النظر في هذه الأبدال مقارنة بالجملة القرآنية يهدي إلى ملاحظ أهمها:

١ - إجماع الأبدال على تقديم ضمير المفعول، خلافاً للمألوف بحيث ترجم معنى الآية في جميعها على النموذج: «OSV and OSV»

يستثنى من العموم نموذج بكثال وهو: OSV, SV ⟶

٢ - استخدمت جميع الأبدال التركيب **do we worship** لإرادة التوكيد، كما تكرر التركيب الموازي في معظمها إمعاناً في إبراز التوكيد.

٣ - اعتمد ثلاثة من الأبدال إضافة «**alone**» تعضيداً للتعبير عن التفرد والاختصاص.

٤ - عبرت جميع الأبدال عما تفيده الصيغة الصرفية العربية «استفعل» الدالّة على الطلب بجمل طويلة متنوعة من حيث الخيارات المعجمية، قارن:

**- Ask for help**

**- Turn to for help**

**- Thine aid we seek**

**- We pray for help.**

ويحصل مما سبق أن وسائل إفادة الاختصاص في الأبدال الإنجليزية شملت العدول عن التركيب الإنجليزي السائد، كما شملت التوكيد وإضافة الوصف alone؛ كل أولئك في مقابل وسيلة واحدة في العربية هي تقديم ضمير المفعول على الفعل، ولعل العلة في ذلك ترجع إلى أمور منها:

(١) احتشاد التراجمة لإبراز ما في سورة الفاتحة من الخصوصية، وما تشتمل عليه من معان متصلة بكليات الدين.

(٢) أن تقديم المفعول على الفعل تركيب قارٌّ في العربية، ومشمول في نحوها، ومرتبط في قواعد نظم الكلام والذائقة البلاغية بالاختصاص؛ فهو دالّ ببنيته النحوية على المراد من غير حاجة إلى الاعتضاد بوسيلة أخرى.

والآن ماذا عن المقابل الروسي في هذا المقام؟

لنقارن بديل كراتشكوفسكي نموذجاً:

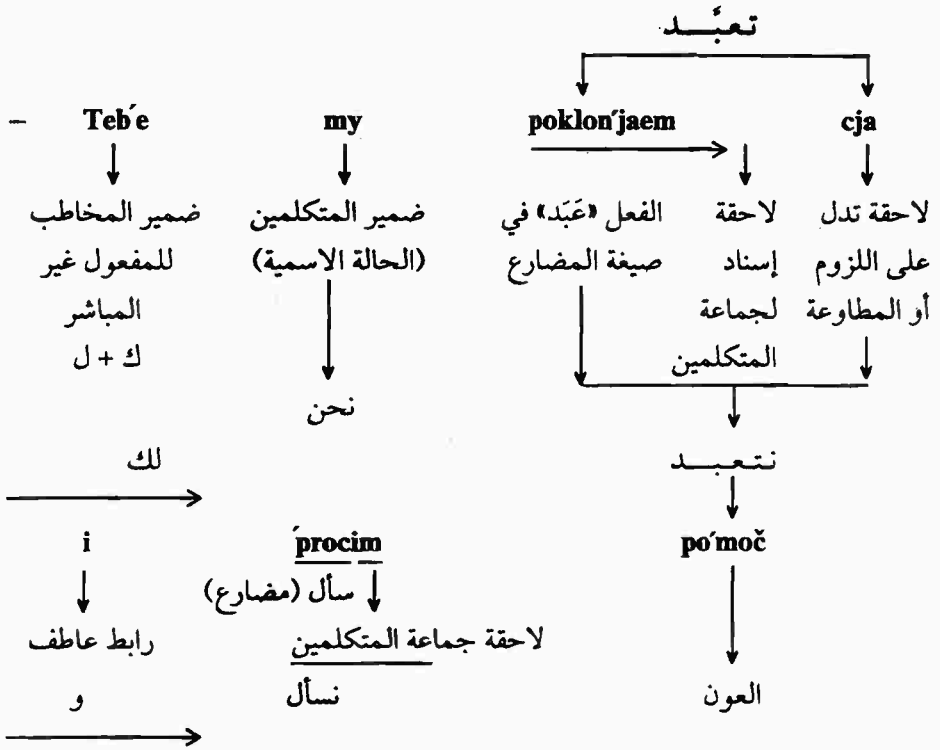


ويتبين لنا من تحليل بديل كراتشكوفسكي أنه اقتصر لإفادة الاختصاص على مخالفة الرتبة بالتقديم كالعربية، ولم يستعن أيّ وسيلة معجمية أو نحوية غيرها؛ إذ أعانه على ذلك رسوم نظم الكلام في الروسية بما هي لغة إعراب، ومن ثم بدا التقارب التركيبي واضحاً بينها وبين العربية، ولا كذلك الحال بينهما وبين الإنجليزية.

## ٦/ ٠ بلاغة الرتبة من منظور تقابلي

أحسب أننا قد بلغنا بهذه الدراسة غايتها من بيان العلاقة الوثيقة بين أنساق الكلام ومقاصد البلاغة، وتباين هذه الأنساق بين اللغات. وباجتماع اللغات على توصيل المقصد البلاغي الواحد بأنساق كلامية متباينة يتعين المشكل اللساني في البلاغة المقارنة؛ ومن ثم نتهيأ الآن لضبط وجوه التقابل بين اللغات الثلاث، من حيث استقلال مقولة الرتبة النحوية بالعبارة عن الاختصاص والاهتمام، وباستثمار إمكاناتها الجمالية لتحقيق مبتغى الكلام من المتعة والتأثير.

لدينا في هذه المقارنة لغات ثلاث؛ اثنتان منها أقرب إلى لغات النسق الحر، وهما العربية والروسية، والثالثة أقرب إلى طبيعة اللغة ذات النسق الثابت وهي الإنجليزية. وترتبط المراوحة بين درجات الحرية والثبات بوجود لواحق إعرابية دالّة تسمح بنماذج من الإزاحة في التركيب يخالف بها موضعُ الملفوظ موقعَ الرتبة. وتمتاز الروسية من العربية بتعقد بيِّن في نظام الإعراب؛ فهو فيها سداسيُّ الحالات، يخص الصفة بعلامات ليست للموصوف مختلفاً بذلك عن نحو العربية الذي يجعلهما من التوابع، ويعتضد النظام الإعرابي فيها بنظام تصريفي للأفعال والصيغ لا يقل عنه تعقيداً، بل إن ذلك كله مشروط في تبدلاته وتوزيعه التكاملي بالسياق الصوتي.

وعلى ذلك يمكن أن نرى في العربية لغة تحتل موقعاً وسطاً بين الروسية والإنجليزية بهذا الاعتبار. وقد أنتج هذا الوضع الوسطي للعربية في هذا المقام مقارنة بأختيها نتائج جديرة بالتأمل:

**أولاها**: أن مفارقة اللفظ للرتبة هي إحدى الوسائل النحوية المتاحة في

العربية للتعبير عن الاختصاص أو الاهتمام، ولإضفاء نوع من الصبغ الجمالي على نظم الكلام. غير أن ذلك لا يستغرق إمكانات الرتبة في تحقيق مقاصد بلاغية أخرى، كما أن إفادة الاختصاص أو الاهتمام تتحقق بغير الرتبة من الوسائل النحوية الأخرى.

**ثانيها**: أن العربية تمارس العدول باللفظ عن موضعه مع بقائه على حالته الإعرابية. وهي وسيلة تبدو بسيطة غير معقدة إذا ما قيست إلى مقابلاتها في الروسية. إن وسائل العدول الممكنة في اللغات المختلفة تشتمل على طائفة متنوعة منها:

(١) ثبات الحالة الإعرابية مع تغيير الموضع. وهي الوسيلة المعتمدة في العربية.

(٢) شمول العدول للموضع والحالة الإعرابية جميعاً. ومردّ ذلك إلى ما يتمتع به الفعل من خصائص بالغة التأثير في تشكيل بنية الجملة في الروسية؛ فكل فعل فيها هو عامل يطلب معموله بحالة إعرابية خاصة من الحالات الست، والحالة التي تصلح لفعل لا تصلح في الغالب الأعم لأفعال أخرى ممكنة من حيث المعنى والسياق.

ويتضحُ لنا فرق ما بين البنيتين العربية والروسية من حيث نصيبهما من البساطة والتعقد إذا تذكرنا أن الفعل المتعدي في العربية - أيّاً ما كان - لا يطلب مفعوله إلا بحالة إعرابية واحدة هي النصب. أما في الروسية فإن اختلاف الاختيار المعجمي للفعل يصحبه غالباً اختلاف الحالة الإعرابية للمعمول؛ وذلك لاختلاف الأفعال فيها اختلافاً بيناً من هذه الوجهة.

(٣) المعجم هو أقل الوسائل حظّاً من الورود في المقابلات الروسية لإفادة الاختصاص أو الاهتمام؛ فالحوار بين العربية والروسية في هذا المقام هو في جوهره هو إلى حوار التراكيب أقرب منه إلى حوار المعجم.

**ثالثها**: أن الإنجليزية تقف على الطرف الآخر من هذا المتصل على الوجه الآتي:

(١) إفادة الاختصاص (أو الاهتمام) بمفارقة اللفظ للرتبة في الإنجليزية وارد ولكنه يقوم بدور جدّ محدود بحكم غياب لواحق الإعراب (أو ما يسمى باللواحق التصريفية)؛ وإذن تكون الأمثلة الواردة من هذا القبيل مغامرة في الصياغة موسومة بالفردية الظاهرة، وهي لا تتم بمباركة من النحو بل بالخروج عليه؛ إنها - بعبارة أخرى - ليست إمكاناً يُتيحه النحو، ولكنها تمرد على رسومه ومواضعاته القارّة.

(٢) دور المعجم في المقابل الإنجليزي أكثر ظهوراً، إذ عليه المعتمد في التعبير عما يفيد الاختصاص عن طريق الرتبة في العربية والروسية.

**رابعها**: أن للرتبة جمالياتها المرتبطة بها في كل لغة من اللغات الثلاث على حدة. وإنما ينشأ المشكل من توارد لغة على لغة في هذا الخصوص. وقد شهدنا كيف أفلتت الترجمات الإنجليزية والروسية توصيلَ ما كان في الجملة القرآنية من تقديم وتأخير قُصِدَ به مراعاة الفاصلة وتشاكل رؤوس الآي.

**خامسها**: أن معتمد النقل أو الترجمة من لغة إلى لغة في جميع أنواع النصوص بإطلاق وفي النص الأدبي بخصوصه هو على تشابه المقولات

الصرفية والنحوية الحاكمة على التراكيب بين اللغات كالتعدي واللزوم، والمطاوعة، والجنس، والعدد، والإسناد، والبناء للفاعلية أو للمفعولية، كما أن معتمدها قائم كذلك على تشابه الوظائف والمقاصد التعبيرية والبلاغية. وكلا الأمرين - مقولات النحو، ووظائف البلاغ - صالح لأن يكون منطلقاً للدرس البلاغي التقابلي.

**سادسها**: أن المقولات المشتركة بين أكثر من لغة تنتج تراكيب متوازية. بيد أن هذا التوازي لا ينتج بالضرورة تطابقاً بين اللغات لا في التراكيب الظاهرة ولا في الوظائف المنوطة بها. مثال ذلك أن البناء للفاعلية وللمفعولية مقولة نحوية مشتركة بين اللغات الثلاث، ولكن تجليات المقولة: فيها تختلف بداهة في التراكيب الظاهرة، إذ تعبر العربية عنه بتركيبين: المبني للمفعول والفعل المطاوع. أما في الوظائف فإن آية ذلك أن العربية إنما تبني للمفعول للجهل بالفاعل أو لعموم المعرفة به أو للتمويه أو لتعظيمه أو لتحقيره على ما أسلفنا الإشارة إليه، فلا يجوز إذن ذكر الفاعل بحال. وإذَنْ فليس من العربية في شيء أن يقال: ضُرِبَ زيدٌ بواسطة عمرو، على حين يجوز نظير ذلك في الإنجليزية والروسية من قبيل التنويع الذي هو خيار أسلوبي متاح.

**سابعها**: أن اعتبار ما سبق يُوجب أن يَقُوم تأسيسُ التقابلات البلاغية بين اللغات على فحص يستوعب تعقد صورة العلاقات التركيبية والوظيفية داخل كل لغة على حدة، وفيما بين اللغات بعضها وبعض.

**ثامنها**: أن الدرس البلاغي التقابلي يمكن أن يُحقِق - في ما نرى - إنجازاً طيباً باتباع تقنية فحص الثابت والمتغير؛ تلك التي يقدم هذا البحث مثلاً لها بخطواتها المنسوقة على الوجه الآتي:

(١) اختيار نص في لغة ما يتوارد على نقله أكثر من لغة.

(٢) الانطلاق من لغة النص الأصلي بفرز قواعد الجواز من قواعد الوجوب، وتعيين التركيب الذي يكون موضوعاً للفحص.

(٣) تثبيت التركيب في لغة الأصل، وفحص ما يرتبط به من وظائف بلاغية، ثم تتبع الاجتهادات المقترحة لترجمته في اللغة الناقلة.

(٤) تثبيت الوظيفة البلاغية وفحص ما يرتبط بها من تراكيب في لغة الأصل وفي اللغات الناقلة.

(٥) الانتقال إلى مرحلة التعميم؛ حيث يجري تأسيس العلاقات بين التراكيب والوظائف داخل اللغات كلٌّ على حدة، وفيما بين اللغات التي هي موضوع للدرس التقابلي البلاغي.

**تاسعها**: أن استظهار الكليات اللسانية والتصنيف التنميطي للغات في علاقتهما بالفحص التقابلي البلاغي للغات يشكلان نموذجاً لعلاقة شديدة التعقيد؛ فكلاهما مدخل ضروري لدراسة التقابلات البلاغية وتأسيس العلاقات بينها، كما أن كليهما مستفيد من محصلة ما يتمخض عنه الدرس التقابلي البلاغي، تحريراً لمسائله وتدقيقاً لتصنيفاته؛ ومن ثم فإن طرفي هذه العلاقة كلاهما معين ومعان.

**عاشرها وآخرها**: أن ما سبق في هذا البحث من معالجة لمقولة الرتبة، وما يتصل بها من وظائف كالاختصاص والاعتناء والصبغ الجمالي إنما هو مثل لا يستغرق جميع ما يتصل بالرتبة وتجلياتها وتقابلاتها، وقد لا يعدو أن يكون مثلاً مضروباً لمعالجة نصية مباشرة لمشكلة متعينة في لغات بأعيانها.

**وأبواب الدرس بعد ذلك مشرعة أمام البحث العلمي لاستيفاء القول في قضايا النحو وعلم المعاني وعلم البيان. وكل أولئك مجالات عذراء للبحث الجاد تنتظر جهود أولي العزم من المشتغلين بالبحث اللساني والبلاغي.**

## ٧/ ٠ خاتمة واستشراف

أوردنا في فاتحة هذه الدراسة سؤالين كلاهما أصل، وفرّعنا عليهما أسئلة خمسة يعالج جميعها مقولة الرتبة في العربية وما تعبر عنه من وظائف ومقاصد بلاغية، مقارنة بمقابلاتها في الإنجليزية والروسية، وكانت الدراسة بمطالبها الستة محاولة جواب عن هذه الأسئلة نرجو أن تكون قد حققت ما هدفت إليه أو بعض ما هدفت إليه. ولقد آن لنا أن ننصرف هنا إلى تحصيل الجدوى النظرية والعملية من مثل هذه الدراسة، ومحاولة التنبؤ العلمي بآفاق البحث العلمي في هذا المجال المعرفي الممتع والواعد.

١ - لعل أول ما يستيقظ نظرنا فيما تقدم تعرفنا من قريب إلى الخواص الحاكمة على نظم الكلام في العربية مقارناً بالروسية والإنجليزية. ولقد رأينا أن العربية تحتل موقعاً وسطاً بين اللغتين بهذا الاعتبار. إنها لا تهدر لواحق الإعراب على نحو ما نرى في الإنجليزية، ولا تذهب بها مذهباً شديد التعقد في ذاته، وفي خضوعه للشروط الصرفية والصوتية والمعجمية على ما هي الحال في الروسية.

وربما كان لهذه الوسطية ميزاتها، بل إنها كذلك في رأينا. غير أننا في حاجة إلى فحص فرضية الوسطية هذه بين اللغات الثلاث على مستويات أخرى وفي مجالات مختلفة؛ للتوصل إلى استكناه حقيقتها إقراراً أو تعديلًا أو عدولًا.

٢ - أحسب أن محصلة النتائج في هذا البحث تفضي بنا إلى جواب عن رأس الأسئلة الذي سقناه في مفتتح هذا البحث؛ ذلك أنها تعزز القول بأن اللغات متفاوتة فيما يتيحه جهازها القواعدي من إمكانات الاختيار الأسلوبي، لاسيما في مستوييه الصرفي والنحوي؛ فلقد بدا الفرق في هذا المجال واضحاً بين اللغات الثلاث لصالح العربية، ثم لصالح الروسية. هل لمثل هذه النتيجة أن تلفتنا إلى جانب ذي خطر من جوانب الميزة في لساننا العربي، ربما جهله بعضنا، وربما حاك في صدور آخرين، وترددوا في الجهر به؟

٣ - أوضح الدرس التقابلي أن ما وسم به نظام الإعراب في العربية من تعقيد وصعوبة هو من قبيل الأقوال المرسلة التي لا تستند إلى حجة من تحليل أو مقارنة؛ فالروسية تفوت العربية في هذا المضمار بدرجات. ويبقى الفارق لا بَيْن لغتين ولكن بين موقفين ثقافيين مختلفين لأصحاب اللسان من لسانهم؛ تمسكاً به وحرصاً عليه، أو برماً به وتجافياً عنه.

٤ - تقترح محصلة البحث أمام المشتغلين بالدرس النحوي واللساني ضرورة التمييز بين ضربين من النحو: النحو العلمي والنحو التعليمي. ويكون ذلك بفرز قواعد الوجوب؛ التي لا يسع أحداً أن يخالف عنها، من قواعد الجواز؛ التي هي إمكانات متاحة للاختيار الحر. وترجع أهمية هذا الفرز الواجب إلى إمكان اعتماده أساساً لتقديم النحو لمتعلميه تبعاً لمستويات عمرية وتعليمية تحكمها الضرورة والحاجة. ولعلنا نلحظ أن العربية المعاصرة كما نعرفها في الصحافة ووسائل الإعلام واللغة العلمية، بل في أكثر النتاج القصصي والروائي قد انصرفت عن

إعمال تراكيب نحوية كثيرة كالتنازع والاشتغال ونماذج التقديم والتأخير الجائزين في نمطي الجملة الشهيرين: الاسمي والفعلي، والأفعال المتعدية إلى ثلاثة مفاعيل وغير ذلك كثير. فلعل هذا الفرز والتصنيف أن يكون وجهاً من وجوه الحل لمشكل مزمن أعيانا التماس حله ومكابدة عواقبه.

٥ - وختاماً للخاتمة: **هل لنا أن نستشرف مستقبلًا بحثياً تتضافر فيه جهود الباحثين من أبناء العربية لمقاربة خصائصها البلاغية من منظور تقابلي مستوعب لمسائل الصرف والنحو ومباحث علمي المعاني والبيان، تعييناً للجوامع والكليات، واستظهاراً للموائز والفروق على نحو يزيدنا علماً بفقه العربية وخصائصها، ويقنعنا على أساس من التحليل العلمي المنضبط بما لهذا اللسان من طاقة وإمكانات يمتاز بها من سائر الألسنة.**

**وهل لنا في موقف تنبؤ علمي أن نمد أعيننا إلى غد قريب أو بعيد تتخلق فيه ملامح مجال معرفي جديد، يضع الطاقة البلاغية في لغات البشر موضع الفحص التقابلي كشفاً عن كلّيات البلاغة، وتصنيفاً للغات بحسب أنماط هذه الكليات ومقاصدها.**

# الحواشي والمراجع

(١) قام برنارد كومري في مؤلف بالغ القيمة - على صغر حجمه - باستكشاف جيد ومكثف لمظاهر التعالق بين هذه المباحث وتضافرها لتشكيل ملامح النظرية اللسانية. وسيكون الكتاب موضوعاً للإحالة في غير مكان من هذا البحث. انظر

Comrie, Bernard: **Language Universals and Linguistic Typology.** 2nd ed., The University of Chicago Press, 1989.

(٢) هذا التمييز اللطيف بين الموقع والموضع هو من اقتراح شيخنا عبد الرحمن أيوب في كتابه المتميز: **محاضرات في اللغة، بغداد**، ١٩٦٦، ص ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٣) ترجمة سابلوكوف مطبوعة بالخط القديم الذي كان سائداً قبل الثورة البلشفية. وهو خط معقد من حيث قواعد الكتابة، وقد قامت السلطة الجديدة بحركة لإصلاح الخط وتبسيطه لا تخلو من غايات سياسية ومذهبية بطبيعة الحال. وقد آثرنا عند الاقتباس منها اعتماد المقابلات الحرفية بالحرف اللاتيني تبعاً للخط الحديث تيسيراً، ودفعاً لمشقة لا طائل من ورائها. أما المناقلة الهجائية transleteration فقد اتبع فيها القائمة التي تضمنها المقال الآتي:

Sussex, Ronald; Russian, in ***International Encyclopedia of Linguistics***, ed. William Bright, Oxford Univ. Press, 1992, p.p. 350 - 358.

(٤) ابن هشام الأنصاري، جمال الدين؛ **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق**: عبداللطيف الخطيب، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠٠، ج ٥/ ١٣.

(٥) **سورة غافر**: ٤٠/ ٨١.

(٦) **سورة البقرة**: ٢/ ٨٧.

(٧) **سورة القمر**: ٥٤/ ٧.

(٨) **النحل**: ١٦/ ٥.

(٩) **مغني اللبيب**: ج ٥/ ١٣ - ١٤.

(١٠) من ذلك مثلاً أن تفسير الصدارة بما كان مسنداً أو مسنداً إليه يلزم معه ألاّ تعد جملة «كان» الناقصة من قبيل الجملة الفعلية، إذ ليست «كان» هنا بأحد ركني الإسناد.

(١١) «بكثال» و«الحايك». وعند «زيدان» و«الخطيب» God بدلاً من Allah. وانفرد «علي» باجتهاد خاص.

(١٢) كراتشكوفسكي.

(١٣) الخطيب. والأبدال الأخرى قريبة من ذلك، وانفرد «علي» باجتهاد خاص.

(١٤) بكثال. وثمة اجتهادات أخرى مختلفة.

(١٥) كراتشكوفسكي. وقريب منه سابلوكوف: (حرفيّاً: **معهم على الأعناق الأغلال**).

(١٦) لا تعترف نظرية النحو العربي بشبه الجملة قسيماً ثالثاً لأنواع الخبر، ولكنها تُعلقه بمحذوف يرده إلى أحد القسيمين: المفرد أو الجملة. ونحن نسلك في الوصف هنا مسلكاً يعين على تيسير المقارنة بين اللغات الثلاث، وإن لم يلتزم التزاماً مطلقاً بنظرية النحو العربي في كل تفصيلاتها.

(١٧) الخطيب. والخلاف بين الأبدال الأخرى ليس كبيراً.

(١٨) كراتشكوفسكي.

(١٩) عليّ. وفي الأبدال الأخرى خلاف يسير.

(٢٠) Tomlin, R. S, ***Basic Word Order: Functional Principles***, London, GroomHelm, 1986, p. 3.

(٢١) انظر: Crystal, D., ***«The Cambridge Encyclopedia of Language»***, Camb. Univ. Press, 1988, p. 98.

(٢٢) إبراهيم أنيس: **«من أسرار اللغة»**، ط ٧، الأنجلو المصرية، ١٩٨٥،

ص ٢٣٧. وانظر تفصيل القول والاستدلال في الفصل الثالث من الكتاب المذكور وعنوانه **«قصة الإعراب»**، ص ص ١٩٨ - ٢٧٤.

(٢٣) راجع تفصيل الخلاف في هذه المسألة في:

ابن عقيل، **«المساعد على تسهيل الفوائد»**، تحقيق: محمد كامل بركات، جامعة الملك بن عبدالعزيز، مركز البحث العلمي، ١٩٨٠، ١/ ٣٨٧ - ٣٨٩.

(٢٤) تتصل هذه المقولة بدلالة الاسم على الثبوت والفعل على التجدد. وقد استظهر عبداللطيف الخطيب في دراسته **للبحر المحيط** أحكاماً عن الجملة قال بها أبو حيان؛ ومنها: أن الجملة الاسمية أبلغ من الفعلية لتكرار الضمير، وأنها أدل من الفعلية على تحقيق مضمون الجملة، وأنها إذا وقعت حالاً كانت آكد من الفعلية. انظر عبداللطيف الخطيب: **«البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي: دراسة نحوية صرفية صوتية»**، رسالة دكتوراه بكلية دار العلوم، ١٩٨١، ص ص ١٤١ - ١٤٢.

(٢٥) ثمة مختصرات ومطولات في نحو اللغة الروسية يصعب حصرها. وليس بنا هنا التتبع والاستقصاء. ولكن يمكن للقارئ بغير اللسان الروسي أن يحصِّل معرفة معقولة بأسس البنية النحوية بالرجوع إلى المقدمة العربية للمعجم الذي وضعه جريغوري شرباتوف، وعنوانه العربي:

**قاموس روسي - عربي**، نشر Sovetskaja Énciklopedija Moskova, 1964.

كذلك يمكن الرجوع إلى مقال Ronald Sussex الذي أسلفنا الإشارة إليه في الحاشية (٢).

(٢٦) Comrie, op. cit., p. 88.

(٢٧) العلوي، يحيى بن حمزة: **«الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز»** دار الكتب العلمية، لبنان، ب. ت، ٢/ ٥٦ - ٦٥.

(٢٨) الزركشي: بدر الدين محمد بن عبدالله، **«البرهان في علوم القرآن»** تحقيق:

محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٨، ٣/ ٢٣٩ - ٢٧٥.

(٢٩) السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي): **«مفتاح العلوم»** ضبطه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧، ص ص ٢٣٤ - ٢٣٦.

(٣٠) الزركشي: **البرهان**، ٣/ ٢٣٧.

(٣١) السكاكي: **المفتاح**، ص ص ٢٣٤ - ٢٣٥.

(٣٢) الجرجاني، عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد: **«دلائل الإعجاز»**، قرأه وعلّق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، ١٩٨٤، ص ١٠٨.

(٣٣) أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف: **تفسير البحر المحيط**، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣، ١/ ١٢٧.

(٣٤) ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد، **المثل السائر، في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٠، ٢/ ٣٦ - ٣٨.

(٣٥) العلوي: **الطراز**، ٢/ ٦٧.

(٣٦) عبدالقاهر الجرجاني: **الدلائل**، ص ص ١٠٦ - ١٠٧.

(٣٧) الزركشي: **البرهان**، ٣/ ٢٣٦ - ٢٣٧.

(٣٨) ثمة حالات أخرى يجب فيها تقديم المفعول على الفاعل؛ كتأخير الفاعل المحصور. ولكنها حالات مشروطة بشروط توجب دراستها منفصلة.

(٣٩) ابن الأثير: **المثل السائر**، ٢/ ٣٦.

(٤٠) السابق: ٢/ ٣٧.

(٤١) السمين الحلبي، شهاب الدين أبو العباس بن يوسف: **«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون»**، تحقيق: علي محمد معوض وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤، ١/ ٣٧٩.

(٤٢) الزركشي: **البرهان**، ٣/ ٢٧٤.

(٤٣) ذكر الإمام السيوطي أن شمس الدين بن الصائغ ألف كتاباً سماه: **«إحكام الراي في أحكام الآي»** قال فيه: «اعلم أن المناسبة أمر مطلوب في اللغة العربية يرتكب لها أمور من مخالفة الأصول. وقد تتبعت الأحكام التي وقعت في آخر الآي مراعاة للمناسبة فعثرت منها على نيف عن الأربعين حكماً». انظر: السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، **«الإتقان في علوم القرآن»** تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، ١٩٨٨، ٢/ ٢٩٦ - ٢٩٧.

(٤٤) الزركشي: **البرهان**، ٣/ ٢٣٥.

(٤٥) السمين الحلبي: **الدر المصون**، ١/ ٢٩٥.

(٤٦) السابق: ٢/ ٥٧٧ - ٥٧٨.